الرسالة الهزلية : قراءة في الوجه الآخر
لابن زيدون

أدي ولد آدب *
(جامعة محمد الخامس – الرباط)

BIBLID [1133-8571] 16 (2009) 227-248

Resumen: "La epístola cómica: una lectura de la otra cara de Ibn Zaydūn". Este artículo ofrece una lectura que busca acercarse a la figura de Ibn Zaydūn desde un ángulo distinto, centrándose en un aspecto poco conocido de su personalidad, mostrando que la prosa de Ibn Zaydūn no es menos creativa que su poesía, y que su vertiente cómica no es menos importante que su vertiente seria.
Se ha elegido la "Epístola cómica" para el análisis y comentario de este estudio por ser una obra de creación literaria escrita en un estado de ánimo efervescente, lo que le infunde el calor de la experiencia verídica, pero sin llegar a dinamitar la trama de una estructura artística muy bien controlada. Armonizar ambos elementos, la pulsión personal y el armazón artístico, se presenta aquí como una de las claves de la creación literaria, además de todos los aspectos literarios cuyo análisis se ha procurado explotar en consonancia con el fondo del asunto y en armonía con el tipo de aproximación elegida en este trabajo.

Palabras clave: Literatura árabe andalusí; Ibn Zaydūn; literatura cómica y humorística.

Abstract: "The comic epistle: a reading of the other side of Ibn Zaydūn". In this article a new reading is offered of the personality of Ibn Zaydūn from a different angle, focusing in a poorly side of the poet, showing that Ibn Zaydūn's prose is not less creative than his poetry, and that his comic side is not less important than his serious side.
"The comic epistle" was chosen to this analysis and commentary as it is a literary work written amidst an anxious state of humour, providing the warm of the trustful experience, without devastating the artistic structure of the story, very well composed. Harmonising both elements, namely, the personal feelings and the artistic structure is viewed here as one of the secrets for the

* E-mail: adbba@maktoob.com

literary creation, in addition to all literary aspects analysed in accordance with the theme and the approach taken by this article.

Key words: Andalusi Arabic literature. Ibn Zaydūn. Comic literature.

ملخص البحث: تقدم في هذه المقالة قراءة تسعى إلى مقاربة ابن زيدون من زاوية مختلفة، تركز على الوجه غير المتداول من شخصيته، لتبرهن على أن ابن زيدون الناثر ليس أقل إبداعا من ابن زيدون الشاعر، وأن ابن زيدون الساخر ليس أقل شأنا من ابن زيدون الجاد.

وقد اخترت رسالته الهزلية موضوعا لهذه المقاربة، تحليلا وتأويلا، باعتبارها عملا إبداعيا كتب في مناخ نفسي محتدم الانفعال، مما أضفى عليها حرارة التجربة الصادقة دون أن يفجر تيار الانفعال الجياش داخلها حبكة البناء الفني التي تحكم، والتوفيق بين هذا وذلك أحد أسرار الإبداع هنا، إضافة إلى ما رصدته في النص من ظواهر فنية، حاولت استغلالها بشكل مختلف، يخدم الموضوع، وينسجم مع روح المقاربة.

كلمات مفاتيح: الأدب الأندلسي العربي، ابن زيدون، الأدب الساخر.

مقدمة

أنطلق –في البداية– من أنني أفهم العرض والبحث على أنهما تقديم للمجهول بدل المعلوم، وتجاوز للحاصل إلى تحصيل ما ليس حاصلا، ومن هنا فإنني أعتبر أي نص، أو كتاب بناء مستقلا. وإذا كان الكسلاء يرغبون في دخول البيوت من أبوابها حسب منطوق الشرع، فإنني أعتقد أن كنوز البيوت وذخائرها لها سراديب وأبواب سرية، ومن هنا فإن من دخل من الأبواب العادية لا يصل إلا إلى الأشياء العادية، ومادامت النصوص بنيات غير بريئة، فإنه يكون من المشروع أن نتلصص على أبوابها السرية، لنكتشف ذخائر كنوزها المضنون بها على غير أهلها، حتى يكون لكلمة البحث معناها، وتكون جديرة بالوقت والمداد المهدورين في سبيلها.

وتأسيسا على هذا المرتكز، فإنني لن أضيع وقتي ووقت القارئ الثمين في سرد البديهيات المجترة والمعروفة والمألوفة عن ابن زيدون، ورسالته، وإنما سأنتقي من جوانب شخصيته ما يخدمني توظيفه في استكناه الرسالة، كما أنني سأتجافى عما ركزت عليه دراسات الرسالة الهزلية وشروحها، حيث استغرقت طاقاتها في

شرح الإحالات التاريخية والثقافية في الرسالة، ولم تتجرأ على مواجهة النص ذاته، واقتحام حرمه الداخلي، ومحاولة إعادة بنائه، وفق رؤية تتحكم في النص ولا يتحكم فيها، كما سأحاول حسب الخطوات التالية:

ابن زيدون وعصره:

لعل شخصية ابن زيدون هي أغنى الشخصيات الأدبية في عصر الطوائف والدويلات، حيث مثل خلاصة لنتاج العصر الأموي في البيئة الأندلسية، وواكب تفاعلات نشأة الدويلات وتنافسها الثقافي، التي كادت تكون جمهوريات شعرية، حكامها ووزراؤها وكتابها وفقهاؤها وفلاسفتها شعراء، فكان الشعر يمثل قمة الهرم القيمي المتحكم في هذه الدويلات المبنى على: الشعر، السياسة، الفروسية، الترف.

أبعاد شخصية ابن زيدون:

يقول عنه جودة الركابي: '' يصفه من ترجموا له بأنه كثير الميل لعلوم العرب وفنون اللغة، فحفظ كثيرا من آثار الأدباء وأخبارهم، وأمثال الشعراء وحوادثهم، ومسائل اللغة... وكانت له ثقافة فلسفية''.[1]

''وهو ابن أسرة اشتهرت بالفقه ونعمت بالثراء، ولد بقرطبة 359 واهتم به أبوه''[2]، ويقول جودة الركابي: إننا ''نستطيع أن نقول إن ابن زيدون مثل قرطبة في شخصيته أحسن تمثيل، فقد وصفته المصادر التاريخية بأنه خفيف الروح، كثير الدعابة، ميال إلى المجون، إلى جانب طموحه السياسي، لهذا فقد نال شهرة واسعة في مجالس قرطبة الأدبية والاجتماعية والسياسية ''[3].

وتكتمل لمسات لوحة شخصيته التي يهمنا تركيبها بقول ابن بسام الذي ''نوه أيضا بفتى الآداب وعمدة الظرف... ذي الأبوة النبيهة بقرطبة والوسامة والدراية، وحلاوة المنظوم والسلاطة، وقوة العارضة والافتنان في المعرفة... كان من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة.[4]

(1) د جودة الركابي، في الأدب الأندلسي، دار المعارف بمصر، 1970، ط. 3، ص. 165.

(2) د. شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف بمصر، ط. 10، ص. 439.

(3) د. جودة الركابي، مصدر سابق، ص. 166.

(4) ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق د. إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا/ تونس، 1975، القسم 1، المجلد 2، ص. 337.

ولعل هذه اللمسات كافية في توضيح عناصر مركبات شخصيته ثقافيا ونفسيا وأخلاقيا وسياسيا وإبداعيا وخلقيا، وكلها مواضيع مسيسة الصلة بالرسالة التي نحن بصدد دراستها، إلا أننا سنتدرج إلى ما هو أخص.

ابن زيدون الناثر لا الشاعر

في إطار تلك الشخصية الموسوعية، المتعددة التوجهات، سوف نركز هنا على ابن زيدون الأديب في جانبه الشعري والنثري، فقد ''فرع أدبه، وجاد شعره، وعلا شأنه، وانطلق لسانه، فذهب به العجب كل مذهب، وهون عنده كل مطلب... أما سعة ذرعه، وتدفق طبعه، وغزارة بيانه، ورقة حاشية لسانه، فالصبح الذي لا ينكر ولا يرد، والرمل الذي لا يحصر ولا يعد''.[5]

حتى أنه جلس ذات يوم لاستقبال المعزين ''فما سمع يجيب رجلا منهم بما أجاب به الآخر، لحضور جنانه، وسعة ميدانه''[6] .

وإذا كان مفهوم الأديب يشمل ملكتي الشعر والنثر فقد ''كان أبو الوليد صاحب منثور ومنظوم... وسع البيان نظما ونثرا، إلى أدب ليس للبحر تدفقه، ولا للبحر تألفه، وشعر ليس للسحر بيانه، ولا للنجوم اقترانه، وحظ من النثر غريب المباني شعر ي الألفاظ والمعاني''.[7]

وإذا كان ابن خلدون قد عقد الفصل الرابع والخمسين من مقدمته'' في أنه لا تتفق الإجادة في فني المنظوم والمنثور معا إلا للأقل[8]، فإن ابن زيدون من ذلك الأقل المستثنى الذي اتفقت له الإجادة في فني المنظوم والمنثور معا، ولعل الجملة الأخيرة من مقتبس ابن بسام السابق، ترقى بنثره إلى أفق الشاعرية، في سبق ملحوظ لرواد قصيدة النثر المحدثين، ولعل هذا الحكم فيه رد على من يؤكد أن ''نظمه عند النقاد أجود من

(5) ابن بسام، مصدر سابق، ص. 338– 339.

(6) ابن بسام، ص. 339.

(7) نفسه، ص. 336.

(8) ابن خلدون، المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 1، سنة 2000، ص. 488.

نثره''.[9]

وربما يكون هذا مسوغا لأن أتجاوز رأي النقاد حول ابن زيدون في شعره ونثره، لأستجلي رأي ابن زيدون ناقدا في ابن زيدون شاعرا وناثرا، حيث وجدته خلال رسائله يعقد مقارنة ومنافسة بين فنيه، جاعلا شعره في كل مرة يغار من نثره، فيتدخل بقصيدة، مما يوحي باستشعاره هو بأن شعره لا يكاد يتفوق على نثره، إن لم يكن العكس هو الصحيح، ويتجلى ذلك حين يقول في رسالة وجهها إلى مظفر الدولة أبي بكر ابن الأفطس: ''... ولما اطرد هذا النثر لحسن اتساقه، ولذ مساقه، هزت النظم أريحية جذب لها بعنانه، وعارضه بها في ميدانه، وأبت أن يتفرد النثر بلقاء الحاجب ومشافهته''.[10]

ويقول في رسالته الجدية إلى ابن جهور:

''ولما توالت غرر هذا النثر، واتسقت دُرره، فهز عطف غلوائه، وجر ذيل خيلائه، عارضه النظم مباهيا، بل كايده مداهيا، حين أشفق من أن يعطفك استعطافه، وتميل بنفسك ألطافه''.[11]

وإذا كانت هاتان الفقرتان قد ساقهما ابن زيدون تمهيدا للانتقال من النثر إلى الشعر في رسالتيه، فإن الموقف النقدي الموحي بتفضيل نثره على شعره غير خاف، لأن المعارَض غالبا يكون نموذجا للمعارض، كما أن المشبه به عادة أقوى من المشبه، والمحسود أقوى من الحاسد، وتأسيسا على هذا وذاك أسوغ لنفسي أن أترك للدارسين التكالب على ابن زيدون الشاعر، وأركز هنا على ابن زيدون الناثر.

إبن زيدون الهازل لا ابن زيدون الجاد:

إن الازدواجية الملحوظة في شخصية ابن زيدون كانت وليدة ازدواجية عصره، وبيئته، بين الأدب والسياسة، والحرب والترف، وإذا كان ابن زيدون قد مثل كل ذلك من خلال ثنائية الشاعر الناثر، وأنا قد اخترته ناثرا، فإني سوف أستجلي ثنائية الجد والهزل، التي كانت تتقسم حياته الشخصية، وبيئته عموما، من

(9) ابن نباتة المصري، سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة المصرية، صيدا، بيروت، 1986، ص. 17.

(10) ابن بسام، ص. 399.

(11) ابن بسام، ص. 336.

خلال نثره وشعره، ولا شك أن خير ما يمثل نثره، هو رسائله التي بوأها ابن بسام الرتبة الأولى قبل شعره في عنوان الفصل الذي خصصه له، حيث قال: ''فصل في.. وفصوص من رسائله وأشعاره''.[12]

ثم يقول: وقد أخرجت من أشعاره... وأخباره... ورسائله التي أخرست ألسنة الحفل، واستوفت أمد المنطق الجزل، بما يسر الآداب ويصورها، ويستخف الألباب ويستطيرها''[13]، عاقدا بعد ذلك بابا فرعيا تحت عنوان'' جملة من نثره مع ما ينخرط في سلك ذلك من شعره''.[14]

إلى غير ذلك من الومضات التي توحي بتفضيل ابن بسام لنثر ابن زيدون على شعره، حيث يبوئه المركز، ويترك لشعره الهامش، مع ما يلامس ذلك من نزعة ابن بسام المنحازة إلى الكتاب على حساب الشعراء، وفق ما يلاحظ من خلال مقدمة ذخيرته.

ومهما يكن، فإن قمة رسائل ابن زيدون التي هي قمة نثره، هما رسالتاه المعروفتان بالهزلية والجدية، اللتان لاحظ جودة الركابي أنهما قويتا الصلة بحياته.

''فالرسالة الهزلية تتصل بحياته العاطفية وما اشتملت عليه من حب ومنافسة

والرسالة الجدية تتصل بحياته السياسية وما رافقها من سجن واستعطاف''.[15]

وأنا هنا سوف اختار ابن زيدون الهازل على ابن زيدون الجاد، لأن لحظات الجد محكومة بقواعد وضوابط خارجية، فلا تسمح للكاتب بالصدق مع ذاته، خلافا للحظات الهزل، ولاسيما هذه اللحظة المدفوعة بعنوان الغيرة والحسد والتنافس على المحبوبة.

الإطار الأدبي للرسالة الهزلية:

يندرج هذا النص في جنس أدبي من أجناس النثر يسمى الرسائل، والتي قسمها الدارسون تقسيمات متعددة، إلى سياسة وأدبية، ونقدية، ودينية، وعلمية، واجتماعية، وسلطانية، وديوانية... ثم لخص بعضهم

(12) ابن بسام، ص. 336.

(13) نفسه، ص. 339.

(14) نفسه، ص: 340.

(15) جودة الركابي، مصدر سابق، ص. 190.

هذه التفريعات الكثيرة تحت فرعين تندرج تحتهما بقية الفروع الصغيرة، هما الرسائل السياسية أولا، والرسائل الاجتماعية ثانيا، وتحت هذه الأخيرة تندرج الرسائل الشخصية والإخوانية والأدبية، وهي ''تصور عواطف الأفراد ومشاعرهم، وتعكس جوانب حياتهم الاجتماعية، وتعبر عن علاقات الأفراد، ومشاعرهم تجاه بعضهم البعض، وما ينعكس على وجدانهم من صروف الدهر ومجريات الأحداث...

وهي أفسح مجالا، وأخصب خيالا، لا يحدها إلا ذوق الأديب، وأغراضها جمة، وأساليبها متنوعة''.(16)

وضمن هذا الصنف من الرسائل تقع الرسالة الهزلية التي نحن بصددها، وهي من ناحية طابعها الهزلي تدخل في إطار رسائل الهجاء الساخر عند الأندلسيين الذي تطور إلى فن يعرف بالزرزوريات'' التي ابتدعها الكاتب الوزير أبو الحسن بن سراج، في تشفع منه لرجل يعرف بالزرزور.''(17)

ولاشك أن هذا اللون الهازل ألصق بذاتية ابن زيدون المعروف بنزعة المجون والدعابة والظرف، التي هي بعض سمات عصره وبيئته، والتي تمتد جذورها في المشرق إلى رسائل الجاحظ، وخصوصا رسالة التربيع والتدوير، إضافة إلى انسجام هذا اللون مع لحظته العاطفية الموتورة، التي أوجدت هذه الرسالة، وكل ذلك مسوغ كاف لاختياري لها موضوعا لهذا البحث.

الرسالة الهزلية: المناسبة والعنوان

يتفق الجميع أن هذه الرسالة كتبها ابن زيدون بعدما حدثت القطيعة بينه وبين محبوبته ولادة بنت المستكفي، وتدخل شخص ثالث بينهما هو الكاتب الوزير أبو عامر بن عبدوس، الذي أصبح يحتل موقع ابن زيدون من قلب ولادة، فلم يستطع ابن زيدون تحمل الصدمة، واشتعلت في نفسه نيران الغيرة والحسد، فأنذر خصمه بالشعر أولا قائلا:

أثرت هزبر الشرى إذ ربض ونبهته إذ هدا فارتمضْ

(16) نبيل خالد ورباح أبو علي، نقد النثر فيتراث العرب النقدي حتى نهاية العصر العباسي، الهيأة المصرية العامة للكاتب، 1993، ص. 275.

(17) نفسه، ص. 281 - 282.

حذار حذار فإن الكريم إذا سيم خسفا أبى فامتعضْ
لعمري لفوقت سهم النضال وأرسلته لو أصبت الغرضْ
وغرك من عهد ولادة سراب تراءى وبرق ومضْ
هي الما يعز على قابض وبمنع زبدته من مخضْ[18]

ومع اتساع الهوة، واحتدام براكين المأساة، ضاق الشعر عن استيعاب تفاصيل الحدث، فلجأ الشاعر إلى النثر، فكتب هذه الرسالة على لسان ولادة إلى ابن عبدوس، مستغلا قصة استخدام الأخير لوسيطة تزينه في عين ولادة، فجاءت الرسالة نفثة مصدور، ومرآة مشاعر موتور، ومعرضا لقدرات ابن زيدون المبدع العبقري أمام محبوبته الأديبة، وخصمه الأديب، في تلك البيئة الأديبة، فكانت ملبية لحاجتين:

أ) التبرج بالقدرات الإبداعية في شكل الرسالة ومضمونها.
ب) التنفيس عن مكبوتات الغيرة والغضب بأسلوب الهزل والسخرية الممضة.

ومن هذا الطابع الأخير اتخذت الرسالة اسم الهزلية، ومادامت عند ابن زيدون رسالة جدية فأنا أفترض أن إحداهما أخذت اسمها من مناقضتها للأخرى، لأنه '' بضدها تتبين الأشياء''، وهذا ما يتطلب استقراء متأنيا لمعرفة السابق من اللاحق، وهو ما لم تشر إليه أغلب الدراسات، لأن إشكالية العنوان لم تستوقف أي أحد، رغم أهميتها في نظري، وبعد كثير من التبصر المتأني في الدراسات المتاحة، لاحظت أن جودت الركابي أشار إلى أن احتدام العداوة بين ابن زيدون وابن عبدوس سوف يكون ''من بين الأسباب التي أدت إلى سجن الشاعر''.[19]

ومادامت الرسالة الجدية كانت وليدة هذا السجن، المترتب على تلك العداوة، فمعنى ذلك أن الرسالة

(18) ديوان ابن زيدون ورسائله، شرح وتحقيق على عبد العظيم، ط؟ 3، الكويت، م.ج. البابطين، 2004، ص. 439. أنظر الهامش. وانظر أيضا المقري، نفح الطيب، تحقيق إحسان عباس، المجلد الخامس، ص. 209.

(19) جودة الركابي، مصدر سابق، ص. 172.

الهزلية هي السابقة، والجدية هي اللاحقة، وهذا ما يتولد عنه افتراض أن سمة الهزلية ربما لم تصبح عنوانا للرسالة الأولى إلا بعد ميلاد الرسالة الثانية، لوجود التضاد بينهما المقتضي للتمييز، وانتفاء ضرورة ذلك في حالة وجود إحداهما فقط.

تحليل الرسالة الهزلية:

في هذه اللحظة، وأنا على عتبة الدخول إلى عالم الرسالة الداخلي، استشعر مع ابن نباتة رهبته، حين طلب منه شرحها فصاح : ''ما أنا وصعود هذا الصرح، وولوج هذا الشرح، ومعارضة ذلك البز، ولست من ذلك الطرح؟!''(20).

إلا أنني في نفس اللحظة أستشعر جرأة على المغامرة، أسوغها لنفسي بأن منهجية الشرح التي طلبت من ابن نباتة تستدعي تأليف كتب على هذه الرسالة التي لا تتجاوز أربع صفحات كبيرة، حيث يقتضي الأمر تتبع إشاراتها، وإحالاتها الثقافية المكتنزة الضاربة في مختلف حقول الثقافة، وتقصي رموزها وتعابيرها، وإيحاءاتها الأدبية، بما تتشبع به من فنون متنوعة، وهذا يعني أن منهجيته تستدعي نشر الرسالة وتوسيعها. أما أنا فإن ما أطالب به نفسي هو اختزالها من خلال معرفة مفاصلها البنائية، والميكانزمات المستبطنة في عملية هذا البناء، مسوغا بكلمة ''الصرح'' التي استخدمها ابن نباتة استعمالي مفهوم البنائية في النص، وخصوصا أن الثعالبي شبه عملية بنائه لكتابه ''يتيمة الدهر'' بعملية بناء دار حيث قال: ''وصار فيها كمثل من يتأنق في بناء داره، التي هي عشه وفيها عيشه، فلا يزال ينقض أركانها، ويعيد بنيانها، ويستجدها على أنحاء عدة، وهيئات مختلفة''(21).

بناة الرسالة:

يتوزع فضاء الخطاب في هذه الرسالة بين أربع شخصيات:

(20) ابن نباتة المصري، مصدر سابق، ص. 14.

(21) الثعالبي، يتيمة الدهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر بيروت، ط.2،1973 ص. 6.

– الكاتب الحقيقي: ابن زيدون المنفعل بالحدث والمعبر عنه.
– الكاتبة المفترضة: ولادة التي تقمص ابن زيدون شخصيتها، وأرادها أن تكتب هكذا.
– المتحدث عنه: المرأة الوسيطة بين ابن عبدوس وولادة.
– المرسل إليه: ابن عبدوس منافس ابن زيدون في قلب ولادة.

من خلال أصوات هؤلاء الأربعة إنبنت الرسالة في نسيجها العام، بالإضافة إلى ما استحضروه من أصوات أخرى، قادمة من كهوف التاريخ، لتشهد قيامتها الوهمية في هذه الرسالة.

بناؤها الهرمي:

تتدرج الرسالة في بناء هرمي يوحي بوعي صاحبها بمعاناة البناء التأليفي التي أشار إليها الثعالبي سابقا، فهي تبدأ بـ:

1. مقدمة بتراء:

بدأت بـ''أما بعد'' قافزة على ما تواطأ كتاب الرسائل على الإتيان به قبلها من البسملة والحمدلة والصلاة على النبي، وهي بالفعل قفزة غير بريئة، وخصوصا من فقيه ابن فقيه يعرف أن ''كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر''، فكأنه يقول ضمنيا إن الموضوع الهازل ليس ذي بال حتى يبسمل قبله، وربما كان احتقاره لشأن المكتوب إليه سببا في ذلك، أو أن انفعاله وغضبه المحتدمان انفجرا فجأة قبل الإتيان بالمقدمة الضرورية، والدليل على صحة هذه التأويلات أنه شرع مباشرة في إطلاق القذائف المدمرة على الخصم، '' أما بعد أيها المصاب بعقله، المورط بجهله، البين سقطه، الفاحش غلطه، العاثر في ذيل اغتراره، الأعمى في شمس نهاره...[22]

''وتنبني هذه المقدمة القصيرة على أربع خطوات:

(22) ابن نباتة المصري، مصدر سابق، نص الرسالة من ص. 3 إلى مابعدها، وكل مقتبس من هذه الرسالة يرجع فيه لنفس الصفحات.

أ) تحديد المخاطب: ''المصاب بعقله''.
ب) المحرك للمراسلة: ''فإن العجب أكذب، ومعرفة المرء نفسه أصوب''.
ج) الهدف: '' وأنك راسلتني مستهديا من صلتي ما صفرت منه أيدي أمثالك''.
د) الوسيط: '' مرسلا خليلتك مرتادة، مستعملا عشيقتك قوادة''.
هـ) التيئيس من تحقيق الهدف: ''كاذبا نفسك أنك ستنزل عنها إلي، وتخلف بعدها علي''.
و) تحليل الموقف: '' ولا شك أنها قلتك إذ لم تضن بك، وملتك إذ لم تغر عليك''.

2. **الهيكل**:

بعد تلك المقدمة المتسلسلة العناصر منهجيا ونفسيا، نصل إلى هيكل الرسالة المتنامي الوحدات حسب الشكل التالي:

أ) الصورة المثالية المزعومة

يتقاطع في نسيجها صوت الوسيطة، وصوت مرسلها ابن عبدوس، فيما تزعمه هي عنه، وما يخاله هو عن نفسه، حيث يتعاضد الصوتان على رسم صورة مثالية تجمع متفرق الصفات الحميدة بين جميع أصناف الإنسانية، في جميع مجالات حياتها، عبر مختلف عصورها، لتمنحها دفعة واحدة لابن عبدوس، حيث يروي الكاتب أو الكاتبة عن الوسيطة أنها ''أعذرت في السفارة لك، وما قصرت في النيابة عنك، زاعمة أن المروءة لفظ أنت معناه، والإنسانية اسم أنت جسمه وهيولاه، قاطعة أنك انفردت بالجمال، واستأثرت بالكمال، واستعليت في مراتب الجلال، واستوليت على محاسن الخلال''.

ثم يقحم الراوي صوت ابن عبدوس داخل صوت وسيطته، حيث يقول: '' حتى خلت أن يوسف –عليه السلام– حاسنك، فغضضت منه، وأن ... وأن ... ''

وينثال زعم الوسيطة، وتخيل ابن عبدوس في إضفاء الصفات المثالية عليه، حتى ينتهي صوتهما إلى أن ابن عبدوس هو المقول فيه: (كل الصيد في جوف الفرى).

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

ومادامت هذه الصورة المثالية قد انبثقت من تلك المقدمة الحاكمة بغروره وعماه، وتحكم في بنائها الزعم والتخييل، فمعنى ذلك أنها صورة هازلة، تضمر نقيض ما تظهر، ولا غرابة أن تؤدي إلى الخطوة الموالية في بناء الرسالة وهي:

ب) فشل الصورة المثالية الوهمية:

إذا كان الهدف من زخرفة هذه الصورة المثالية المزعومة لابن عبدوس، هو إغراء ولادة بالوقوع في غرامه، فإن النتيجة –حسب ما أراد ابن زيدون– كانت عكس ذلك، حيث يختفي في هذه الفقرة صوتا الوسيطة الزاعمة، وابن عبدوس المتخيل، ليأتي رد الفعل عبر صوت ولادة الصارم الغاضب على هذه الوسيطة ومرسلها: ''فكدمت في غير مكدم، واستسمنت ذا ورم، ونفخت في غير ضرم، ولم تجد لرمح مهزا، ولا لشفرة محزا، بل رضيت من الغنيمة بالإياب، وتمنيت الرجوع بخفي حنين''.

ثم تصف شعورها هي: ''ونخرتُ وكفرتُ وعبستُ وبسرتُ وأبدأتُ وأعدتُ وأبرقتُ وأرعدتُ''، وبعد تهديد الوسيطة بالقتل –إن هي عادت لمثل هذا– تفرض معها جدلا صدقها فيما وصفته، لتصل إلى أن '' المعيدي تسمع به خيرا من أن تراه''، مهيئة بذلك لرسم:

ج) الصورة المزرية لابن عبدوس:

وهي الصورة الحقيقية في نظر ابن زيدون، والتي أراد لها أن تكون مرسومة وفق رؤية ولادة: ''هجين القذال، أرعن السبال، طويل العنق والملاوة، مفرط الحمق والغباوة، جافي الطبع... بغيض الهيأة... ظاهر الوسواس، منتن الأنفاس... فوجودك عدم، والارتباط بك ندم، والخيبة منك ظفر، والجنة معك سقر...''.

وتتولد عن هذه الصورة صور أخرى، عبارة عن مقارنات غير متكافئة، تبالغ في تحقير الرجل، وتمعن في السخرية منه والتلاعب به، والتنفير منه.

ج.1. المقارنة بين الخاطب والمخطوبة:

حيث تصيح ولادة في حنق: ''كيف رأيت لؤمك لكرمي وفاء، وضعتك لشرفي كفاء، وأني جهلت أن الأشياء إنما تنجذب إلى أشكالها، والطير إنما تقع على ألافها، وهلا عملت أن الشرق والغرب لا يجتمعان، وشعرت أن المؤمن والكافر لايتقاربان، وقلت الخبيث والطيب لا يستويان... فالنار ولا العار، والمنية ولا الدنية، والحرة تجوع ولا تأكل بثدييها...

فكيف وفي أبناء قومي مناكح وفتيان هزان الطوال الغرانق

ج.2. مقارنته بأحبابها الآخرين:

وهي الأخرى مقارنة غير متكافئة، أراد ابن زيدون من خلالها . على لسان ولادة . أن يهزأ بابن عبدوس، ويوضح له أنه لا يرتقي إلى فلك ابن زيدون، وغيره من رواد صالون ولادة، حيث تقول هي له: '' ما كنت لأتخطى المسك إلى الرماد، ولا أمتطي الثور بعد الجواد، فإنما يتيمم من لم يجد ماء، ويرعى الهشيم من عدم الجميم... ولعلك إنما غرك من علمت صبوتي إليه، وشهدت مساعفتي له، من أقمار العصر، وريحان المصر، الذين هم الكواكب علو همم، والرياض طيب شيم، ما أنت فيهم، وأين تقع منهم، وهل أنت إلا واو عمرو فيهم؟''

ج.3. عدم انخداعها بصورته الكاريكاتورية:

ولزيادة الإمعان في السخرية منه ترسم له صورة كاريكاتورية، تقدم لنا لمحة عن تقاسيم المظهر النموذجي لفتيان ذلك العصر، حيث تقول: ''وإن كنت قد بلغت قعر تابوتك، وتجافيت عن بعض قوتك، وعطرت أردانك، وجررت هيمانك، واختلت في مشيتك، وحذفت فضول لحيتك، وأصلحت شاربك، ومططت حاجبك، ورفعت خط عذارك، واستأنفت عقد إزارك، رجاء الاكتنان فيهم، وطمعا في الاعتداد منهم، فظننت عجزا...''

مؤكدة أنها لن تنخدع في حقيقته، مهما تقمص صور هؤلاء، أو صور عشرات الشخصيات التاريخية النموذجية.

ج.4. المقارنة القاضية:

حيث تستطرد راجعة إلى المقارنة بينه وبين عشاقها، هذه المرة في جانب حساس هو العاطفة والقدرة الجنسية'' وكم بين من يتعمدني بالقوة الظاهرة، والشهوة الوافرة، والنفس المصروفة إلي، واللذة الموفرة علي، وبين آخر قد نضب غديره، ونزحت بيره، وذهب نشاطه، ولم يبق إلا....''

وهكذا تكون، عندما طعنته في رجولته، قد أجهزت عليه نهائيا، وهنا تصل الرسالة إلى الخطوة قبل الأخيرة وهي:

د) . النتائج السلبية للعجب والغرور

بعد أن أجهزت عليه في صميم رجولته، أخذت تتشفى فيه، وتحمله مسؤولية النهاية البائسة التي آل إليها، قائلة : ''ما كان أخلقك أن تقدر بذرعك، وتربع على ضلعك، ولا تكن براقش الدالة على أهلها، وعنز السوء المستثيرة لحتفها، فما أراك إلا سقط العشاء بكل على سرحان... أعذرت أن أغنيت شيا، وأسمعت لو ناديت حيا''.

3. **الختام: التوبة أو النفي**

وهنا تضع أمامه خيارين، إما:

الاعتراف بالذنب، والندامة عليه، والتوبة منه، فتكون ''اشتريت العافية لك، بالعافية منك''.

وإلا فالنفي قسرا إلى البادية، ''فإذا صرت إليها، عبث أكاروها بك، وتسلط نواطيرها عليك، فمن قرعة معوجة تقوم في قفاك، ومن فجلة منتنة يرمي بها تحت خصاك، ذلك بما قدمت يداك، لتذوق وبال أمرك، وترى ميزان قدرك.

فمن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى''

وهكذا نلاحظ أن هذا البناء المتسلسل للرسالة يمكن أن يعتبر بناء دائريا، يمثل حلقة مفرغة، تنتهي حيث بدأت. فالرسالة بدأت بوصف بطلها المركزي بالمصاب بعقله... بجهله ...سقطه... غلطه... العاثر في ذيل اغتراره، لتنتهي بالنتيجة الحتمية لذلك الغر (البيت المذكور أعلاه).

وهنا أيضا يمكن أن اعتبر البيت الأخير مختزلا . في شطريه . للبناء العمودي لسرد الرسالة، حيث تتألف في بنائها العام من صورتين كبيرتين:

1 – صورة ابن عبدوس، كما تراه وسيطته، ويرى نفسه = الغرور (الشطر الأول).
2 – صورته –كما يراه ابن زيدون– على لسان ولادة = الحقيقة (الشطر الثاني) .

خريطة ذاكرة ابن زيدون العلمية في الرسالة الهزلية:

هناك ملاحظة طريفة ودقيقة، انتبه إليها الدكتور جودت الركابي، حول رسالتي ابن زيدون الجدية والهزلية، حين قال: ''ويبدو إنشاؤه فيهما قليلا ضئيلا، إذا ما قيس بما يذكره من أمثال العرب، وأسماء رجال التاريخ، والوقائع الشهيرة''.[23]

ونحن إذا أردنا توزيع مخزون هذه الذاكرة المشحونة بالمعارف إلى خريطة متمايزة المعالم، سنحتاج إلى تصميم هذا المخزون في حقوله المعرفية:

– التاريخ: كسرى وقيصر والإسكندر وأردشير والضحاك وجذيمة وجساس وكليب و...
– الوقائع: الصلح بين بكر وتغلب، الحمالات بين عبس وذبيان، انتصارات الحجاج وقتيبة ...
– الفلسفة: ''أفلاطون أورد على أرسطاليس ما نقل عنك''.
– الفلك: و''بطليموس سوى الإسطرلاب بتدبيرك''.
– الجغرافيا: و''صور الكرة على تقديرك''.
– الطب: و''بقراط علم العلل والأمراض بلطف حسك''.
– الصيدلة: و''جالينوس عرف طبائع الحشائش بدقة حدسك''.

(23) د. جودت الركابي، مصدر سابق، ص. 191.

– القضاء: و''أنك نهجت لأبي معشر طريق القضاء''.

– الكيمياء: و''أظهرت جابر بن حيان على سر الكيمياء''.

– الكلام: و''أعطيت النَّظَّام أصلا أدرك به الحقائق''.

– الموسيقى: و'' إن صناعة الألحان اختراعك، وتأليف الأوتار والأنقار توليدك وابتداعك''.

– الكتابة: و'' أن عبد الحميد باري أقلامك، وسهل بن هارون مدون كلامك، والجاحظ مستمليك''.

– المنطق: و'' إنك الذي أقام البراهين، ووضع القوانين، وحد الماهية، وبين الكيفية والكمية، وناظر في الجوهر والعرض''.

– علوم اللغة: ''وصنف الأسماء والأفعال، ووصل، وقطع، واستفهم، وأخبر''.

– الفقه: و''مالك ابن أنس مستفتيك ''.

– علوم الحديث: ''وأهمل وقيد وأرسل وأسند''.

– العقائد: ''وتصفح الأديان، وجمع بين مالك وغيلان، وأشار بذبح الجعد، وقتل بشار بن برد''.

– السحر أو النبوءة: ''وأنك لو شئت خرقت العادات، وخالفت المعهودات، فأحلت البحار عذبة، وأعدت السّلام رطبة''.

– القرآن: وظفه في قصة يوسف، وامرأة العزيز، وقارون، واقتبسه في أساليبه كثيرا''.

– الحديث: استعمل مصطلحاته، واستشهد ب: ''جرح العجماء جبار''.

– الأمثال: كثيرة مثل: ''تسمع بالمعيدي خير من أن تراه... على أهلها دلت براقش... تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها...

– الأشعار: استشهد بأبيات تامة وسليمة، ونثر أشعارا أخرى في أحشاء الرسالة.

فهل هذه الحقول المتعددة إلا روافد ثقافة ابن زيدون،التي أراد أن يتبرج بها من جهة أمام محبوبته المثقفة، وخصمه الكاتب، وأن يوظفها جميعا في بؤرة واحدة، هي: رسم صورة ساخرة لخصمه، تمنحه كل شيء، ثم تسلبه كل شيء، تلبسه ثم تعريه، في لعبة الهزل المضبوطة، عبر هذه الرسالة.

أسلوب الرسالة الهزلية

سبق أن لاحظنا، مع ابن بسام، ومع ابن زيدون نفسه، ارتقاء النثر عنده إلى فلك الشاعرية، وإذا

كان ذلك يتجلى أكثر في رسالتيه الهزلية والجدية، باعتبارهما ذروتي إبداعه النثري، وممثلتي وجهي حياته العاطفي والسياسي، والهازل والجاد، فإن إبداعه كان أكثر تألقا في الرسالة الهزلية، ربما نظرا لقوة الدافع، وحساسية المناسبة (فهي تتصف بالانفعال القوي الصريح، المعبر عن سخط الشاعر وألمه، من منافسه، الذي لعب بقلب من أحب، ولعبت هي به).(24)

ولعل ذلك ما جعل هذه الرسالة –على عكس أختها الجدية– يطغى عليها طابع السجع.

طابع السجع:

وهنا لا أتفق مع الدكتور جودت الركابي، حين يعتبر تقيد ابن زيدون بالسجع في رسالته الهزلية –دون الجدية– تكلفا، لأننا حينما نتفق في كون هذه الرسالة كانت وليدة مناخ نفسي يتصف بالانفعال القوي – كما قال– فإنه لابد حينئذ أن ينتبه إلى العلاقة الملحوظة بين الانفعال الداخلي، وبين الإيقاع الخارجي، فقد أثبتت بعض الدراسات في الإيقاع أنه ''من الوقائع المشاهدة أن حركاتنا تصبح موقعة، حين نعاني انفعالات قوية، لأن قانون الانتشار العصبي –كما يسميه جوبو– يجعل التأثر الذي ينشأ في المخ الإنساني، ينتقل قليلا أو كثيرا إلى الأعضاء، كما ينتقل الاضطراب على صفحة الماء الذي كان سكانا.

وإلى هذا ذهب الشاعر إليوت، حين دافع عن ضرورة الوزن في الشعر، باعتباره يختص بالعاطفة إذا كانت في حالة زائدة الشدة، وهو يتناول أقوى العواطف وأكثرها حدة واهتزازا، والاهتزاز هو السمة الأولى للعاطفة والوزن معا.''(25)

ولا شك أن للحالة العاطفية المتوترة التي أفرزت هذه الرسالة الهزلية أثرها الفعال في توتر أسلوبها، في شكل فقرات قصار مسجوعة متلاحقة، تبعا لاهتزاز هذه العاطفة، ولاسيما أن للبعد البيولوجي –هو الآخر– دوره في توتر هذا الأسلوب، لأن الإنسان في لحظات الانفعال العنيف تتسارع ضربات قلبه، وتتلاحق عملية الشهيق والزفير في إيقاع تنفسه، فيلزم أن يكون الكلام المنجز بين الشهيق والزفير المتلاحقين

(24) د. جودت الركابي، مصدر سابق، ص. 190.

(25) أدي ولد أدب، الإيقاع في المقامات اللزومية للسرقسطي، إصدارات دائرة الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة، 2006، ص. 176.

قصيرا وموقعا على إيقاع التنفس والنبض في هذه اللحظات.

ثم إن موقف التحدي من الخصم الذي يسخر به ابن زيدون، يؤهل رسالته لأن تتقمص أسلوب القرآن المكي، ذي الفواصل القصار المتلاحقة، المنذرة كالقذائف المتساقطة.

وهنا لا بد أن ألمح في هذا السياق إلى أن السجع ظاهرة معقدة، تحتاج وقفة تأمل متأنية، قبل إرسال الأحكام السريعة، فهو يملك طاقة تأثيرية في المبدع والمتلقي، بما يحدثه من أجراس متناغمة، توفر محطات ومفاصل في سيرورة الرسالة الكلامية، تتيح للمرسل التحكم في الأداء، وللمتلقي التحكم في الاستقبال، بالإضافة إلى القوة التأثيرية التي تخدر بها الجهاز الحسي لكليهما، حتى تستطيع الروح أن ترتقي في معاريجها دون عوائق المادة والحس، وهذا ما انتبه إليه الكهان قديما، حيث يقول بن خلدون: ''ولا يقوى الكاهن على الكمال في إدراك المعقولات، لأن وحيه من وحي الشيطان، وأرفع أحوال هذا الصنف أن يستعين بالكلام الذي فيه السجع والموازنة، يشتغل به عن الحواس، ويقوى بعض الشيء على ذلك الاتصال، فيهجس في قلبه من تلك الحركة''[26].

وقد تعززت مكانة السجع في البلاغة العربية بنزول القرآن الكريم المعجز زاخرا بالأسجاع في فواصل سوره، الأمرالذي يجعلنا نتحفظ في إطلاق الأحكام الجزافية على عواهنها، بكون السجع مظهرا ملازما للضعف والتكلف والصناعة، إذ أن السجع ليس إلا وسيلة من وسائل التعبير الفني، فما دامت تقوم بهذه الوظيفة فهي مطلوبة ومرغوبة، حيث يقول الجرجاني ''إنك لا تجد سجعا حسنا حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه، وساق نحوه، وحتى تجده لا يبغي به بدلا، ولا يجد عنه حولا''[27]، أما إذا تحولت هذه الوسيلة إلى غاية في ذاتها، وأصبحت قواعد اللغة تلوى أعناقها للوفاء بالسجع، ويعزل في سبيلها الأمراء وتطلق النساء، فذلك هو الضعف والركاكة والتكلف.[28]

(26) ابن خلدون، مصدر سابق، ص. 81.

(27) الجرجانيعبد القاهر، أسرار البلاغة، تعليق محمد رشيد رضا، الطبعة 4، 1947، ص. 7.

(28) يقال إن كاتبا في العصور الوسطى كتب :''يا أمير قم، قد عزلناك فقم''، فقيل له: لما عزلته؟ فقال :لضرورة السجع.

الجناس:

ويعزز من إيقاع ذلك السجع، وتجنيس أجراسه، وتموجات موسيقاه الداخلية لزومه لما لا يلزم، في كثير من فواصله، تحديا للخصم، وتبرجا بالقدرة اللغوية والإبداعية، خالقا بذلك جناسات تتمثل في:

كنزت، ركزت، غاشيتك، ماشيتك، طاعتك، جماعتك، مسالمتك، منادمتك. وتتفشى هذه اللزوميات في أكثر سجعاته، مع ملاحظة أنه يلتزم لحظات استراحة في مفاصل الرسالة، يتخلى فيها عن السجع نهائيا، انفلاتا من ربقة التكلف المزعومة.

التقابل والتطابق:

هنا يشير جودت الركابي إلى أن ابن زيدون –وحتى لو لم يتقيد بالسجع– ''لايترك الموازنة، فجمله متشابهة في النغمة متناسقة في الطول''.[29]

ويدخل في هذه الموازنة المشار إليها حسب نظري، كل من الطباقات والمقابلات التي تقوم بالدور نفسه الذي يقوم به السجع والجناس، ما دام الجميع وسيلة فنية، لم تتحول إلى غاية. وأنا أشير إلى أن الازدواجات الثاوية في البنية العميقة لهذه الرسالة، عصرا وبيئة وموضوعا وشخصيات، كلها تقتضي ازدواجات تتراءى على البنية السطحية، والتي عبر عنها الركابي بالموازنة، ويمكن أن نجد أصداءها في الطباقات الكثيرة والخطيرة مثل ''وجودك عدم، والاغتباط بك ندم، والخيبة منك ظفر، والجنة معك سقر''، فهي طباقات ممعنة في الهزل، وأخطر منها وأسخر المقارنة بين عشاق ولادة وبين ابن عبدوس، ''وكم بين من يتعمدني بالقوة الظاهرة، والشهوة الوافرة، والنفس المصروفة إلي، واللذة الموفورة علي، وبين آخر قد نضب غديره، ونزحت بيره، وذهب نشاطه''.

ولكي لا أقف عند المفاهيم المألوفة للطباقات والمقابلات والموازنات، سوف أحاول تعميق هذه المفاهيم، إيغالا في سراديب بنية النص، فهناك مقابلة كبيرة تحكم الرسالة كلها هي: مقابلة بين صورة ابن عبدوس –كما يرى نفسه– وبين صورته كما تراه ولادة في الرسالة، ومقابلة بينه وبين ولادة نفسها، وبينه وبين أحبابها، وحتى بين ابن عبدوس والشخصيات التاريخية التي قورن بها سلبا وإيجابا، وهذا المستوى من

(29) جودت الركابي، مصر سابق، ص. 191.

الطباقات والمقابلات هو الأهم الأعمق في إطار التحليل الجاد، النافذ إلى كنه النصوص الإبداعية.

التصوير:

تحت هذا العنوان قد يتوقع متوقع أن أتناول أنواع الصور البلاغية، من تشابيه واستعارات ومجازات حسب المألوف، ولكن عن أي ذلك أتحدث؟ والرسالة كلها صورة ومجاز واستعارة وتشبيه؟ فكاتبتها مجاز واستعارة، وجميع الأشخاص التي شحنت بها مجرد مشبهات بها لمشبه هو ابن عبدوس، في شكل مقارنات مغالية في السخرية.

ولعل أروع جانب في تصوير الرسالة لفت انتباهي ببراعته وطرافته، هو أن ابن زيدون مارس ''الرسم بالكلمات'' فعلا من خلال استحضاره لأسماء ذلك الفيض من رجال التاريخ، إذ أن ذكر كل واحد يرسم في أذهاننا صورة لابن عبدوس مختلفة، حتى تتحول الرسالة الهزلية إلى شريط سينمائي كوميدي، تتسلسل لقطاته بإخراج محكم، حيث ترى ابن عبدوس في لحظة تأمل فلسفي متقمصا شخصية أفلاطون، أو فارسا على صهوة النعامة فرس الحارث ابن عباد، أو تراه كيميائيا في مختبره، حين يعطيه صورة جابر ابن حيان، إلى آخر الصور العجيبة التي قلما ينتبه إليها دارسوا الأساليب والتصوير الفني، على جدارتها بالملاحقة والتنويه.

الخلاصة:

وأخيرا أجد نفسي مرغما على التوقف عند هذا الحد من التداعيات التي أثارتها لدي هذه الرسالة، وعندما أرجع البصر كرتين فيما خلفته ورائي من الكلام استخلص منه ما يلي:

1. أن ابن زيدون شخصية غنية ما تزال فيها جوانب جديرة بالدراسة.
2. أن ابن زيدون الناثر ليس أقل ثراء ولا إغراء من ابن زيدون الشاعر.
3. أن ابن زيدون الهازل ليس أقل أهمية من الجاد إن لم يكن العكس صحيحا.
4. أن مفهوم الهزل –في حقيقته– قد لا يتناقض مع الجد، لأن كثيرا من الأعمال الجدية تقدم نفسها وكأنها عبث، كما يقول الدكتور محمد مفتاح.

5. أن آلية السخرية عنده لم تأت لغرض تربوي يسعى لتقويم الأخلاق المنتقدة وإبدالها بالأمثل، حسب ما يذهب إليه بعض دارسي فن السخرية من العرب والغربيين، وإنما جاءت آلية تعبيرية بحتة، للتنفيس عن الغضب المحتقن، ولتدمير الخصم.
6. أن ابن زيدون ابتكر من خلالها أساليب إيقاعية وتصويرية غريبة وعميقة، حاولتُ النفاذ إليها، مخترقا قشور المصطلحات والفنون المألوفة.
7. أن ابن زيدون كان واعيا بالبناء الفني المعماري لرسالته، ولم يترك ثورة غضبه تفجرها، حيث وازن –بشكل عجيب– بين فكر هادئ حصيف، ينظم وينسق ويبني بحكمة، وبين عاطفة ثائرة، تتميز غيظا، وغيرة، وتدمر، وتسحق.
8. أن ابن زيدون أعاد من خلال رسالته تشكيل عالمه في دنيا مخيلته، عكس ما هو واقع، حيث جعل ولادة تقول وتفعل ما يحلم به هو، لا ما تمارسه بالفعل، ووضع ابن عبدوس في الصورة والموضع الذي يتمنى له، وليس كما هو في حقيقته التاريخية، كما وضع نفسه وأمثاله من رواد صالون ولادة وقلبها في المكانة التي ينبغي أن تبوئهم ولادة إياها، بالمقارنة مع منافسه المنفي في حكمه، المعشوق في حكمها.

وأخيرا لولا أنني أتوجس خيفة من أن تكون صورة عملي هذا في عيني كصورة ابن عبدوس في عينه وعيني وسيطته، وأن أجني ثمرة الغرور التي جناها، فأهدد بالنفي إلى الخضراء، ليعبث بي غوغاء البوادي لقلت إن هذا العمل عالج موضوعه بشكل مختلف عن المألوف، وقدم نتائج أعتبرها جديدة، تخدم روح النص، ومنها تنبثق، ولم يكتف بأن يظل يحوم حول الموضوع، ولا يتجرأ على اقتحامه، كما يفعل الكثير من منتحلي سمة البحث.

ومهما كان توجسي، فإنني أستسمحكم أن أدعى أنني –من خلال هذا العمل المتواضع والمبتسر– قد فضلت –في مقاربة هذه الرسالة– استغلال قدراتي الذاتية الهزيلة، بدل التسلق على أكتاف الآخرين، واخترت أن أحشر في زمرة المجتهدين، وأتطفل على ميدان البحث، بدل أن أكون إحدى الدواجن التي تعتاش على ما يقدمه لها الآخرون، وحتى لو كان من النفايات السامة.

ولولا أني أقدر القارئ الذكي، وأحترم نفسي أيضا، لما تجشمت عناء ارتياد الطرق غير اللاحبة، ولا اكتفيت

بنقل صفحات من هنا، وأخرى من هناك، وملأتها من قال... وقال... دون أن نعرف شيئا عن ماهية الرسالة الهزلية لابن زيدون.

فإذا كنت قد أصبت فذلك المطلوب، ولي أجران، وإلا فإنني لن أخسر أحد أجري المجتهد، بالإضافة إلى متعة المغامرة والله ولي التوفيق.